دستور الله

ما هو دستور حكومة الله؟ ما هي بنوده؟ هل يُعقل أن يلغي الله دستوره في عهد النعمة؟ ما فائدة هذا الدستور بالنسبة لرعايا الملكوت؟ هل لا يزال هذا الدستور ساري المفعول بعد الصليب؟ هل تدفعنا محبّة الله ومحبّة القريب إلى طاعة بنود الدستور العشرة؟ هل كلّ وصايا الله متساوية في الأهمية؟ بأيّ مقياس سيحاسبنا الديّان في النهاية؟ إلى أيّ مدى يكرم الربّ وصاياه المقدّسة؟ هل كان للوصايا وجود قبل موسى النبي؟

ليس من حكومة أو سلطة على وجه الأرض تُسارُ وتُدارُ بدون دستور، فمواطنو الدولة ملتزمون بقوانين عادلة، بنّاءة وصارمة تعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه. هذه القوانين تعيد الحقوق إلى أصحابها وتقلّم مخالب الخارجين عن القانون الفارّين من وجه العدالة والجائرين على المستضعفين وسالبي مقدّرات المواطنين المسالمين. وهي بمثابة ميزان القانون وقسطاس العدل والمساواة، والهدف منها هو إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل حتى تسير عجلة المجتمع بسلاسة ويُسر وبذا تضمن بقاء وازدهار المجتمع وبالتالي سعادة الجماهير. فلولا هذا الدستور لسادت شريعة الغاب واختفى النظام وعمت الفوضى والهمجّية محلّ السلام.

ودستور الله هو ناموسه المقدّس الأزلي يعكس صورة مُشرّعه ويُدلي بجلاءٍ عن أخلاقه وصفاته. وحيث أنّ الله صالح منزّه في كلّ أعماله وأفكاره ونواياه فناموسه كذلك، لا يرقى إليه النقص ولا تشوبه شائبة. فذاك الذي أشفق على الأجناد السماويّة الساقطة وأتاح لهم المجال للرجوع عن غيّهم وحيدانهم دهورا لا يعلم إلاّهُ مداها، كيف لا يمهل البشر الذين صنعتهم يمينه على شبهه ومثاله؟ ولناموس الله أو دستوره المقدّس سمات هي صفات وصاياه اللازمة للحياة لزوم الغذاء والماء والهواء.

وهذه السمات الجوهرية لها:

١- مصداقيتها: هي مشيئة السماء. «حينئذ قلت هنذا جئت. بدرج الكتاب مكتوب عنّي. أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت وشريعتك في وسط أحشائي» مزمور٤٠:٧،٨. فإن كانت

مسرّة الربّ يسوع هي أن يفعل مشيئة الآب، أفلا يجدر بنا أن نفعل نحن مشيئة الآب والابن والروح القدس؟!

«الربّ قد سرّ من أجلّ برّه. يعظّم الشريعة ويكرمها» إشعياء٤٢:٢١ لهذا عندما قصّر الجنس البشري في إكرام الشريعة وتعدّى عليها، أدّى إكرام الربّ لهذه الشريعة إلى معاناته وآلامه على الصليب وكأنّه بذلك يقول لنا في عتاب رقيق ... لو أنّكم توانيتم في إكرام الشريعة لما أكرمتموني وتسبّبتم في صلبي مجدّداً.

٢- سنحتها: هي شريعة غرّاء. «كلّ وصاياك أمانة» مزمور١١٩:٨٦. «بارّ أنت يا ربّ وأحكامك مستقيمة. عدلاً أمرت بشهاداتك وحقاً إلى الغاية» مزمور١١٩:١٣٧،١٣٨. حيث أنّ الله عادل ومستقيم لابد أن يكون دستوره عادلاً مستقيماً كذلك لكي يكون ميزان حقّ يزن بالقسطاس المستقيم، لا يضير أحداً. ينصف ولا يجحف، يصون ولا يخون، يشدّد ويحدّد ولكنّه لا يهدّد فقد سطّرته يدُ أمينة وفاض به قلب محبّ رؤوف رحيم يسعى لإسعاد رعاياه.

٣- مكانتها: هي قوانين عصماء. «عدلك عدل إلى الدهر وشريعتك حقّ» مزمور١١٩:١٤٢. «ضيقٌ وشدّة أصابني أمّا وصاياك فهي لذّتي. عادلة شهاداتك إلى الدهر فهّمني فأحيا» مزمور١١٩:١٤٣،١٤٤. من صفات الحكومات الناجحة برلمانيّاً هي نزاهة قوانينها التي ترعى مصالح شعوبها وتضمن لهم السعادة والهناءة وحكومة الله هي أقصى مراتب النزاهة والتجرّد حبّاً في رعاياها التي تسخّر لهم كنوز النعمة الفياضة لتنيلهم السعادة الأبدية.

٤- صفتها: هي كمال وارتقاء. «ناموس الربّ كامل يردّ النفس. شهادات الربّ صادقة تصيرّ الجاهل حكيماً. وصايا الربّ مستقيمة تفرّح القلب.أمر الربّ طاهر ينير العينين» مزمور١٩:٧،٨. إنّ ناموس الله كامل كالله نفسه وهو صورة أخلاق صانعه ومشرّعه. المحبّة والبرّ لحمته وسداه حتّى ينسج الخالق الماهر كمال الخُلق على نوله وعلى نمط كمال المسيح « الذي لم يفعل خطيّة ولا وجد في فمه مكر» ١بطرس٢:٢٢. وعندما نؤمن نتبرّر في لحظة ثمّ ننمو في القداسة ببرّ المسيح ونلبس ثوب برّه بعد أن ينزع عنّا ثوب الخطيّة والعار.

٥- قوّتها: هي آيات وآلاء. عندما كان تابوت العهد الذي يحوي ناموس الله المقدّس يسير أمام جيوش العبرانيين، كان دائماً النصر حليفهم إن هم سمعوا لصوت الربّ وأنصتوا إلى أوامره وأطاعوا وصاياه. ولقد ظهرت قوّة ناموس الله المقدّس عندما جنحت العربة التي عليها التابوت فخاف عزّة أن يسقط التابوت على الأرض، ولمّا لمس التابوت الذي لا يحقّ لأحد غير سبط لاوي أن يمسّه سقط ميّتاً في الحال ... فكم وكم من يستخفّ بناموس الله ويهمل في طاعته؟

٦- هويّتها: هي بطاقة انتماء. «فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصّة من بين جميع الشعوب. فإنّ لي كلّ الأرض وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمّة مقدّسة» خروج١٩:٥،٦.

كان على شعب الله قديماً أن يفرز نفسه من بين الأمم المجاورة الوثنية بتمسّكهم بوصايا الله وبختان كلّ ذكر وقد ردّد الشعب قبوله وانصياعه للعهد المقدّس الذي قطعه الربّ معهم على جبل حوريب «فأجاب جميع الشعب معاً وقالوا كلّ ما تكلم به الربّ نفعل» خروج١٩:٨. وأوصاهم الربّ بأن يعلّموا وصايا الله لأولادهم ويكتبوها على قوائم أبوابهم. «وأعطيهم قلباً واحداً وأجعل في داخلهم روحاً جديداً وأنزع قلب الحجر من لحمهم واعطيهم قلب لحم لكي يسلكوا في فرائضي ويحفظوا أحكامي ويعلموا بها ويكونوا لي شعباً فأنا أكون لهم إلهاً» حزقيال١١:١٩،٢٠. ومتى حصل خاصّة الله على قلوب لحميّة يكتب الله ناموسه المقدس في عهد جديد على صفحات قلوبهم. «لأنّ هذا هو العهد الذي أعهده مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام بقول الربّ أجعل نواميسي في أذهانهم وأكتبها على قلوبهم وأنا أكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً» عبرانيين٨:١٠.

٧- دلالتها: هي دليل وفاء. الطاعة هي دليل الإيمان فقد جاء في يعقوب ٢:١٧،١٨ «هكذا الإيمان أيضاً إن لم يكن له أعمال ميّت في ذاته. لكن يقول قائل أنت لك إيمان وأنا لي أعمال. أرني إيمانك بدون أعمالك وأنا أريك بأعمالي إيماني». ولقد أكدّ الربّ يسوع ذلك بقوله «إن كنتم تحبّونني فاحفظوا وصاياي» يوحنا١٤:١٥. ودليل الطاعة هو حفظ يوم السبت

مقدّساً لأنّ ذلك يتطلّب منّا تضحية إذ أن حفظه سيتعارض مع قوانين المجتمع الصارمة والتي تستوجب العمل في يوم السبت والدراسة والامتحانات .. فالسبت محكّ اختبار للأمناء الحقيقيّين الذين يثبتون إلى المنتهى بأمانة لكلّ مبادئهم.

٨- صنعتها: هي بوتقة للنقاء. «لأنّه مثل نار الممحصّ ومثل أشنان القصّار فيجلس ممحّصاً ومنقياً للفضّة فينقّي بني لاوي ويصفّيهم كالذهب والفضّة ليكونوا مقرّبين للربّ تقدمةً بالبرّ» ملاخي٣:٢،٣.

والبرّ يأتي نتيجة تسليم أنفسنا لقيادة الروح القدس وطاعة وصايا الله لأنّ ناموس الربّ روحي يحارب ميول الجسد والخطيّة» رومية٧:١٤. وكوننا نسلك حسب الروح فنثمر ثمار الروح وهي «محبّة فرح سلام طول أناة لطف صلاح إيمان وداعة تعفّف. ضدّ أمثال هذه ليس ناموس» غلاطية٥:٢٢،٢٣.

٩- كفايتها: هي تحرير الأسراء. يظهر من إجابة الربّ يسوع على تساؤلات اليهود إيضاحٌ جميل لمعنى التحرّر إذ قال «... إنّ كلّ من يعمل الخطيّة هو عبد للخطيّة والعبد لا يبقى في البيت إلى الأبد. أمّا الإبن فيبقى إلى الأبد. فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» يوحنا٨:٣٤-٣٦. والدرس المستفاد هنا أنّ الربّ يسوع قد حرّرنا من كسر الناموس وليس من الناموس نفسه. فالوصايا هي قانون والخارج عن القانون لا يتحرّر بل على النقيض يدخل السجن فإنّ الخطيّة هي التعدّي على ناموس الله الأدبي. فإذا توهّمنا بأنّ دم المسيح قد أعفانا من طاعة الوصايا فقد فشل في حربه الروحيّة ضدّ الشيطان ولم يعدّ بعدُ يصلح لأن يكون مخلصاً.

١٠- طاعتها: هي إزكاء للرجاء. يدون آخر أسفار الوحي «الرؤيا» إعلان الربّ بنفسه عن مجيئه الثاني الذي هو رجاء المؤمنين المبارك قائلاً: «وها أنا آتي سريعاً وأجرتي معي لأجازي كلّ واحد كما يكون عمله. أنا الألف والياء. البداية والنهاية. الأول والآخر. طوبى للذين يصنعون وصاياه» رؤيا٢٢:١٢-١٤. وما دام الجزاء مربوطاً بطاعة الله في الانصياع لمطاليب

وصاياه المقدّسة، إذن فالحرمان من الحياة الأبدية سيكون نتيجة طبيعيّة للعصيان والتمرّد على دستور الله الأبدي.

١١- عصمتها: هي مروءة وإباء. إنّ ما تحضّ عليه الوصايا من عمل الصلاح وما تنهى عنه من عمل الطلاح، يوعز به روح الله القدوس الساكن في خائفيه فيبكّت على الخطيّة ويرشد إلى السلوك السويّ فتكون الوصايا له بمثابة منذر بالخطر من جرّاء الخروج من الأرض المقدّسة التي يهيمن عليها الروح القدس والولوج في الأرض المنجسّة بأفكار الشيطان وادران الخطيّة فيكون لسان حال المؤمن الأمين «كيف أصنع هذا الشرّ العظيم وأخطيء إلى الله» تكوين ٩:٣٩.

١٢- رؤيتها: هي مرآة وصفاء. في مشادّة مع الناموسيّين وجّه بولس الرسول سؤالاً إليهم باستنكار قائلاً: «فماذا نقول. هل الناموس خطيّة. حاشاَ. بل لم أعرف الخطيّة إلاّ بالناموس» رومية٧:٧.

فهل إذاً نظرت نفسك في المرآة ووجدت شعرك منكوشاً ولاحظت وجود وسخ على جبينك، تلوم المرآة في ذلك. هل تسبّبت المرآة في تشويه طلعتك؟! ألا تهب وتغسل وجهك وتمشّط شعرك حتى يكون مظهرك لائقاً؟ وهل إذا دفنت رأسك في الرمال، كما يدّعون للنعامة، تنجو من الخطر المقبل؟ ألا ينبغي أن تواجه أخطاءك وتصحّح أوضاعك؟! انظر كيف تساعدك هذه المرآة الإلهيّة في الصيرورة مثل المسيح «وأمّا الربّ فهو الروح وحيث روح الربّ هناك حرّية. ونحن جميعاً ناظرين مجد الربّ بوجه مكشوف كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الربّ الروح» ٢كورنثوس٣:١٧،١٨. لقد حمانا الربّ من فرط محبّته من خطورة رؤيته مباشرة فأرسل لنا الروح القدس الذي يمكث في داخلنا طالما أطعنا وصاياه وسلكنا بالروح كما سلك ذاك في جدّة الحياة فلا بدّ نتغيّر بفعل قوّة نعمته التي تمكّننا من طاعة وصاياه لنشابه صورة شقيقنا الأكبر يسوع المسيح.

١٣- حمايتها: هي سياج ووقاء. «في ذلك اليوم يُغنَّي بهذه الأغنية في أرض يهوذا. لنا مدينة قويّة. يجعل الخلاص أسواراً ومترسة. افتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة الحافظة الأمانة

ذو الرأي الممكّن تحفظه سالماً سالماً لأنه عليك متوكّل» إشعياء٢٦:١-٣. المسيح هو الباب الذي يدخل منه القطيع إلى الحظيرة سالماً طالماً يحفظ الأمانة ويطيع الوصايا. ويكفي التعدّي على وصية واحدة من هذا السياج فتحدث ثغرة ينفذ منها الأسد المزمجر ابليس طالباً من يبتلعه. ولكنّنا نظل في أمان من الخطر كلّما حافظنا على سلامة ومتانة ووحدة ذلك السياج «فمن حفظ كلّ الناموس وإنّما عثر في واحدة فقد صار مجرماً في الكلّ» يعقوب٢:١٠.

١٤- براءتها: هي دستور أتقياء. إنّ عبيد الله الطائعين يسيرون وفق تعاليمه ووصاياه المقدّسة، فهي دستور حياتهم، وبوصلة وجهتهم الأبدية. ولنا مثال مشرّف في سلوك يوسف عندما جرّبه الشيطان بحيلة امرأة فوطيفار مقدماً له كلّ المغريات، بالترغيب في المنصب والمجد، وبالترهيب بالحبس والجلد .. ومع أنّ كسر هذه الوصيّة يعتبر ضدّ إنسان لأنّ وصيّة لا تزنِ مدوّنة على اللوح الثاني، إلاّ أنّ أمانة يوسف اعتبرت هذا التعدّي خطأً ضدّ العليّ القدّوس. لذا أعلن الشابّ العفيف موقفه قائلاً «فكيف أفعل هذا الشرّ العظيم وأخطيء إلى الله» تكوين٣٩:٩.

١٥- هدايتها: هي سراج وضياء. «سراج لرجلي كلامك ونور لسبيلي» مزمور١١٩:١٠٥. وأيضا «لأنّ الوصيّة مصباح والشريعة نور وتوبيخات الأدب طريق الحياة» أمثال٦:٢٣. معطي الشريعة يُدعى «شمس البر» و «كوكب الصبح المنير» لا بل و «نور العالم» هذا هو كلمة الله المتجسد وكلمته المكتوبة تنير لنا الطريق السويّ الذي يجب أن نسلك فيه فلا نتعثّر في حبائل الشيطان وأشراك خداعه الماكرة.

١٦- غايتها: هي تزكية وإبراء. وردّاً على سؤال صاحب المزامير القائل «بمَ يزكيّ الشاب طريقه»؟ مزمور١١٩:٩. تأتي الإجابة من ذات الآية فيكمل الوحي قوله «بحفظه إيّاه حسب كلامك» ومن يريد أن يفلت من الدينونة ويُزكّي، يجب أن يحيا بحسب إرادة الله المرضيّة الكاملة «إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» رومية٨:١.

١٧- سمتها: هي لهج الأمناء. إنّ لسان حال أولاد الله دائماً يقول: «بوصاياك ألهج وألاحظ سبلك. بفرائضك أتلذّذ. لا أنسى كلامك» مزمور١١٩:١٥. فحياة المؤمن الأمين لا تستقيم ولا يكون لها طعم بدون طاعة لوصايا الربّ الكاملة، إذ أنّه لا يحسّ بسلام مع الله حتى يأخذ القرار الحتمي بأن تبقى حياته نقية، طاهرة، خالصة لخالقه وفاديه. عبادتنا وصلواتنا وتسبيحنا لا يقيم الله لها وزناً إن لم نشفعها بطاعة إيمانيّة حينئذ تصبح عبادة الله هواية وغواية ليس فيها جبرٌ أو قسرٌ وعندئذٍ فقط تثمر عبادتنا للملكوت.

١٨- قدرتها: هي غذاء وإرواء. لقد نبس الربّ يسوع لتلاميذه بسرّ البركة الذي يتوخّاه التقليديّون في سرّ الأفخارستيا أو التحويل كما يتوهّمون قائلاً «.. خذوا كلوا هذا هو جسدي ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فشربوا منها كلّهم» وفي يوحنا٦:٥٤،٥٥. «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير لأنّ جسدي مأكل حقّ ودمي مشرب حقّ» إذن فقد فسرّ الربّ بكلّ وضوح فاعليّة دراسة كلمته والتغذّي عليها ففي ذلك الثبات في الحقّ، وفيه الشبع والارتواء. وما أبلغ ردّ المخلص على تجربة ابليس له قائلاً: «إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة أن تصير خبزاً، فقال له يسوع ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله» لوقا٤:٤.

١٩- سعتها: هي تقوى وأداء. إنّ واجب الإنسان في هذه الحياة هو أن يخاف الله ويتّقيه ويطيع أوامره «فلنسمع ختام الأمر كلّه. اتّق الله واحفظ وصاياه لأنّ هذا هو الإنسان كلّه» جامعة ١٢:١٣. ونصح الرسول بطرس المؤمنين قائلاً: «فسيروا زمان غربتكم بخوف» ١بطرس١:١٧. إن كنّا نخاف الله ونوقّره ونتّقيه، نحفظ وصاياه عملياً ونسير في إثر خطوات الربّ يسوع متّخذينه مثالاً، نسلك كما سلك ذاك في حياة تكريسيّة له وحده.

٢٠- سطوتها: هي دينونة وقضاء. لقد أحسّ داود النبيّ بعدالة الله في قصاصه وتأديبه له على ذنبه العظيم فقال «قد علمت يا ربّ أنّ أحكامك عدل وبالحقّ أذللتني» مزمور١١٩:٧٥. ولقد تحقّق يعقوب أخو الربّ من سلطان الوصايا وسطوتها على المعتدين المتعدّين عندما قال: «هكذا تكلّموا وهكذا افعلوا كعتيدين أن تحاكموا بناموس الحرّية» يعقوب٢:١٢.

ومع هذا فهناك الجانب الإيجابي من قضاء الوصايا وهو الثواب. اقرأ عنه في مزمور ١٩:٩-١١ «أحكام الربّ حقّ عادلة كلّها. أشهى من الذهب والإبريز الكثير وأحلى من العسل وقطر الشهاد. أيضاً عبدك يحذّر بها وفي حفظها ثواب عظيم». إنه لقول حكيم الذي يقول .. ابن الطاعة تحلّ عليه البركة، فهلاّ عزمنا على الحصول عليها بالطاعة!